

الصوم عن القاهرة

في يوم العيد

[رسالة مبدأة إلى الأستاذ الزيات ،

وإلى من تنبيههم مكانة القلم البليغ]

للدكتور زكي مبارك



كان من السنن الجميلة أن أقضى يوم العيد بين أهلى فى الريف
وكان للعيد فى حياتى تأثير جميل ؛ فقد كنت أسمع من أمى وخالاتى
وعماتى دعوات أكاد أشهد صمودها إلى السماء

وما أذكر أنى قضيت العيد بعيداً عن أهلى إلا فى الأعوام
التي قضيتها بين الاعتقال والاعتراب ، ولله حكمة عالية فى ابتلاء
القلوب بألوان من الضجر والضيق تؤهلها لإدراك بعض المجاهيل
من بيداء الوجود

وفى صبيحة أحد الأعياد مضيت إلى « سنترىس » وأنا خال
الذهن من المفاجئات ، فراغنى أن أرى أبى يجذب يدي فيقبلها
بحرارة وشوق ، وكنت أنا الذى يقبل يميناء فى جميع فرص اللقاء
ولو أتيت فى اليوم الواحد عشرات المرات ، فإذا فهمت من
ذلك العطف الجديد ؟

قدرت أن أبى سيموت ، وأنه لم يقبل يدي إلا إيذاناً بالوداع ،
وأنتى لن أراه فى مثل ذلك اليوم من السنة التالية ، وأن الدنيا
لن تسمح بأن أرى العيد فى صحبة صديق كان غايةً فى صياحة
الوجه ، وحصافة العقل ، وطهارة الوجدان . وهل رأت عينائى
رجلاً لأفضل من أبى ؟

وصفه السيودى كومتين لأحد محدثيه بهذا الوصف الطريف :

C'était un vieillard de chez nous

يرحك الله ، يا أبى ! ويرحم أبى فى رعاية قلبك الرفيق !
كان أبى يحببى إلى حد الإسراف ، وكنت خليقاً بذلك
الحب ، فابات من أجلى ليلة واحدة وهو محزون أو مكروب .
وهل جشمت أبى ما لا يطيق ، أو فرضت عليه أن يحسب للتابعى

أبى حساب . مع أنه لم يمت إلا بعد أن تخرس كاهلى بمحمل
الألوف من المصاعب الثقيل ؟

تهل على قضاء العيد فى الريف بعد موت أبى ، فكيف كان
العوض من ذلك الحرمان ؟

أشار أخ كريم بأن أزور قصر جلالة الملك يوم العيد لأقيد
اسمى فى دفتر التشريفات ، فإذا غنمت من تحقيق ذلك الاقتراح
الجميل ؟

كنت أبكر قليلاً ، لأسير فى شوارع القاهرة لحظات قبل
أن أصل إلى قصر جلالة الملك ، فعرفت من جمال القاهرة ما لم
أكن أعرف . وما ظنكم بمدينة لا يستطيع العيد أن يزيد لها
جمالاً إلى جمال ؟

كان يروعنى أن أرى القاهرة لا تتأثر بالعيد ، وكبت وجميع
أيامها أعياد ؟

وهل يمكن أن تمر بأحد شوارع القاهرة فى أى وقت ،
ثم تعود وأنت فى أمان من الفتون ؟

إلى أحسد من يرى القاهرة لأول مرة ، أحسده وأحدد
عليه ، فالبرغم منى أن يكون لى فى هواها شريك ، ولو كان من
أكبر أهل الوفاء

وأقول « أول مرة » لأنى أخشى أن يكون طول الإلف

قلل من طرافتها فى عيني ، وإلا فكيف جاز أن يكون طوافى
بشوارعها مقصوراً على أوقات الأعمال ؟ ألا تمر أسابيع فى أيام

الإجازات بدون أن أستصبح بنورها الوهاج ؟

وأرجع فأدون أبى كنت أصل إلى قصر جلالة الملك بسد-

أن أطوف بشوارع القاهرة لحظات ، فأرى القصر يموج بالهتئين
من الوزراء والقضاة والمحامين والنواب والشيوخ والأعيان ،

وألتفت فأراونى أستقبل كل قادم ، وأودع كل ذاهب ، كأننى

فى دارى ، وأنتهب الفرصة فأدير المناقشات الأدبية والاجتماعية

مع من أصادف هنالك من رجال القلوب والعقول ، ولا أنصرف

إلا بعد أن أطمئن إلى أنى عيبت على أكثر من أحب أن أرام

فى يوم العيد

كان متوسط ما يصدر عن المؤلفين المصريين اثنا عشر مجلداً في كل يوم ، قبل أن ترتفع أثمان الورق ، فهل أقيم لجهودنا ميزان في وزارة المعارف أو رئاسة مجلس الوزراء ؟

واسم مصر يرتفع من يوم إلى يوم في أقطار اللغة العربية بفضل القلم البليغ ، فهل جوزى حلة الأقلام على ذلك الجهاد ؟ نحن أغنياء بأقلامنا وأرواحنا عن ثناء الأمة المصرية ، ولكننا نشتهي أن تكون أمتنا غاية في الوفاء ، وهو أشرف الخصال ، فهل تسمع أمتنا هذا الصوت ؟

شاعت المقادير أن تكون لمصر الزعامة الأدبية في الأقطار العربية والإسلامية ، أفلا يكون من العيب أن يحفظ قدر القلم المصرى في جميع الديار ، إلا الديار المصرية ؟ بأعصابنا ودمائنا غنمنا الحركة الأدبية ، بعد نضال حششت فيه قوى كريهة تتمتع بالهواء الذى تنسمه ملك بنى أمية ، وملك بنى العباس .

ولن نزع الراية الأدبية من أيدينا ، ولو عاد عهد الخلفاء في قرطبة ودمشق وبغداد ، فإن شاء بنو الأعمام والأخوال أن يناضلونا من جديد فنحن على استعداد للنضال

وهل يحتاج بنو الأعمام والأخوال إلى مثل هذا الوعيد ؟ إن عطفهم مبذول بغير حساب ، ونحن لا نشكو غير تجبى الحكومة المصرية ، فهي لا تصترف للقلم بحق إلا إن كان صاحبه من السياسيين ، وسنؤوب جميع أدباء اللغة العربية على الحكومة المصرية ، فلتعرف هذه الحكومة أن صبرنا لن يطول على تجنيها الجليل !

أما بعد فقد عثر على أن يحظى ناس بمقابلة جلالة الملك ، ثم لا يكون نصيبى غير كتابة اسمى في دفتر التشریفات ، وأنا من فئة قليلة تحمل المصاييح لإمارة القلوب والعقول ، ولها فضل معروف أو مجهول في بناء هذا الجيل

وكذلك قررت الصوم عن القاهرة في هذا اليوم ، والصيام في العيد حرام لا حلال ، فهل يغفر الله هذا الذنب العظيم ؟

وكان جلالة الملك رأى أن يخفف على شعبه الأمين تكاليف التشریفات ، فكان الوافدون على القصر للتهنئة لا يشعرون بالفروق الموروثة بين الطبقات ، وكان حظ أى زائر مماثلاً تمام للمائة لحظ رئيس الوزراء

ثم ماذا ؟ ثم جاء هذا العيد بجديد لم ألتفت إليه من قبل نظرت في منهاج التشریفات فهالنى أن لم أجد فيه مكاناً لرجال القلم البليغ ، مع أن لرجال القلم نصيراً في قصر جلالة الملك ، هو الرجل أحمد محمد حسين ، وكان من لطائفه أن يراعى هذا الشأن الدقيق

مليكننا العظيم الشاب يسره أن يشهد جميع ما في وطنه من القوى الحيوية ، وأعظم القوى في مصر هي قوة القلم البليغ ، فكيف يصعب علينا أن نصافح جلالة الملك في يوم العيد ، ونحن رسل الثقافة المصرية في الشرق ؟

إن أقلامنا هي زينة الوطن في أعوام النماء ، وسناده في أيام البأساء ، فكيف يحال بيننا وبين مصافحة رمز الوطن في يوم العيد ؟ رجال الدين لهم في التشریفات الملكية مكان ، وللوزراء والسقراء مكان ، ولكبار رجال الأعمال مكان ، فأين المكان المحفوظ لأقطاب القلم البليغ ؟

أعيد القارىء أن يتوهم أنى أطالب بمقام رسمي ، تنص من سمو المنزلة الأدبية ، فإنا نحن طلاب ظواهر ، وإنا نحن طلاب معانى ، والقصر هو الرمز المعنوى لروحانية هذه البلاد ، وزيد بصراحة أن يكون لنا في ظلاله مكان ، باسم الفكر والبيان .

الأدب للأدب ...

ولهذا المعنى نطالب بأن يكون له في التشریفات الملكية مكان

قد يقال إن حملة الأقلام في مصر يعدون بالمشرات أو بالملثات ، ومن الصعب أن يوضع لهم نظام في التشریفات .

وأجيب بأن من السهل أن يكتفى بالطبقة الأولى ، وأفرادها لا يحتاجون إلى تشریف ، ثم تكون هذه الطبقة رمزاً للقوة الأدبية في التشریفات ، ليعرف رجال القلم أن حظهم غير ضائع في هذه البلاد